

العنصر الانساني

في كتاب « النماذج البشرية »

الأستاذ عبد المنعم عبد العزيز المليجي

أصدر الدكتور محمد مندور كتاباً ثلاثة أضافها في الأسبوع الماضي إلى المكتبة العربية هي « نماذج بشرية » و « في الميزان الجديد » و « من الحكيم القديم إلى المواطن الحديث » الأول والثاني من تأليفه ، والثالث ترجمه عن الفرنسية لمجموعة من الدراسات في الثقافة الخلقية ، كتبها نفر من كبار أساتذة فرنسا المعاصرين

وليست « النماذج البشرية » بالكتاب الغريب عن القراء فقد طالعنا بعضه مقالات في المجلات الأدبية ، ظل ينشرها

المفرغ Vacuum tube يتحول ويتقدم أخذت القوة الكهربائية للمخ نصيبها من البزل (اصطلاح طبي)

وكان الدكتور برجر أول من اشتغل بكهرباء المخ . وقد بزل المخ بوضع آلات تسمى (إليكترودات electrodes) مباشرة على العضو من خلال فتحات صغيرة في الجمجمة . وحصل على آثار موجة المخ للمعايرة والبلهاء . وهذه الطريقة الآن يسهل استعمالها

هب أن نخك أريد به أن يبزل ؛ إذن يجب أن يدعك ذراعك الأيمن دعكاً تاماً لينتقل كل زيوت الجلد . ثم يلف حول الذراع ضمادات مشبعة بمحلول ملحي لتحتفظ الآلات المسماة (إليكترودات) مضغوطاً عليها تجاه الجلد عند المعصم والساعد . وتوضع حول رأسك عمامة بيضاء تحتوي على الجهاز القضي للرأس ، وتوصل الأسلاك هذا الجهاز بجهاز آخر يسجل « تموجات المخ » على قصاصات من الورق

التموجات الكهربائية للمخ

للموجات الكهربائية في المخ ورنان rhythms معروفان

المؤلف تبعاً منذ عاد من أوروبا ، قبل الحرب الحالية بقليل ، حتى اليوم . وقد جمعا المؤلف في كتاب واحد بعد أن أعاد فيها النظر فأصالح منها ، ورجع عن الكثير من آرائه وأحكامه ، وفقاً لتطوره الروحي . وأضاف إليها نماذج جديدة ؛ وفضلاً عن ذلك فقد صُدِّرَ للكتاب مقدمة طويلة كتبها زوجته السيدة ملك عبد العزيز خريجة كلية الآداب . وقد احتوت تلك المقدمة على دراسة عميقة لما جاء في الكتاب ؛ وبما لها من نفاذ الأدبية الشاعرة ، وبحكم كونها أقرب الناس إليه عرضت لشخصية المؤلف بالتجليل فكشفت لنا الستار عما يخفى علينا من خصائص نفسه الفنية الراحلة يختلف الشاعر الحادة والمعاني المتأقنة

وبعد فما موضوع هذا الكتاب ؟ أو ما هي هذه النماذج البشرية التي عرضها علينا المؤلف ؟ نفر قليل من العباقرة الخلّاقين أمثال : « جيته » و « دستوفسكي » و « مولير » و « هوميروس » الخ ... هم وحدهم الذين استطاعوا بطول

في العلم بموجتي « ألفا » و « باء » Alpha & beta ووزن Alpha بتموج نحو ١٠ صرات في الثانية الواحدة . و beta نحو عشرين صرة في الثانية . وتظل هذه الموجات متماثلة يوماً بعد يوم في حالات اعتيادية . وحينما يحدث اضطراب عقلي أو عصبي تسجله الموجات الكهربائية . فمثلاً في الصرع epilepsy يوجد تكديس عظيم من القوة الكهربائية في المخ بمقدار ٣٠٠٠/ . فوق العادي . وفي الأغماء تبطل موجات المخ بالنزول إلى ٣ أو ٥ صرات في الثانية . وعلى قدر ما يكون استهلاك الخك شافاً تكون القوة الكهربائية التي تدرها أكثر . والاستفقال بالمسائل الحسابية المويضة يجعل الإلحاح على مقياس المخ كبيراً ومن الوزن rhythm الذي يظهر على السجل نحكم بأن النساء يفكرن أسرع من الرجال . والتكرار المتوسط لموجات « ألفا » عند المرأة ١١ في الثانية مقابل ١٠٢ عند الرجال والبزل الكهربائي للمخ يظهر في موجات أناس يختلفون اختلافاً تاماً . ولقد برهنت التجارب حقيقة نظرية علم النفس بأنه ليس هناك شخصان يتشابه تفكيرهما بأي حال .

عبد العزيز ميارر

(الأسكندرية)

« أوليس » ، تلك الشخصية التي خلدت في الأدب اليوناني ، وذلك البطل الذي تردد ذكره في الأوديسا والإلياذة ، ملحمتي « هوميروس » ثم بعد ذلك بقرن في « فيلوكتيت » مسرحية « سوفوكليس » الشاعر اليوناني العظيم الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد . وهل كان الكاتب يستطيع أن يلم بعالم هذه الشخصية وتطورها إلا خلال دراسة مخصصة لهذه المسرحيات الثلاث ؟ بل ولحياة اليونان بأسرها : تاريخها وفلسفتها ، وفنها وأخلاقيها ؟ وإن القارئ ليلس آثار هذا الجهد حين يقرأ ما كتبه المؤلف عن « أوليس » وكيف أودع هذا النموذج تطور اليونان الرحي من خشونة البداوة الأولى بما فيها من مظاهر الشجاعة والإقدام إلى طور الحكمة وما يسوده من مكر ودهاء ؟ ثم إلى طور الانحلال الخلق الذي يجعله المؤلف رهيناً بظهور الفلسفة وما يتبعها من سفسطة وتمرد للفكر . ويقول المؤلف في ذلك (ص ١١٤) :

« لا . إن أوليس لم يعد « في الأوديسا » من الصلابة بحيث كان ، وقد أخذ التفكير يتغلب في نفسه على خشونة البداوة . أخذ الدهاء يسيطر على الشجاعة ، أخذت الرقة تنفذ إلى صلابة قلبه . أخذ يتحضر . وهذا أمر لا عيب فيه ، ولكن طريق الحضارة طريق زلق سوف تراه في الحديث الآتي « فيلوكتيت » ينتهي بزجلنا كما انتهى بالشعب اليوناني كله إلى بوادر انحلال خلق ، ستكون إحدى مظاهره ذلك الخبط القبيح الذي يصعد عنه أوليس « فيلوكتيت » Philoctète مسرحية سوفوكليس الروائي العظيم » . ثم يقول عن أوليس في فيلوكتيت (ص ١١٤) :

« تركنا أوليس وقد أصبح في الأوديسا أقدر على الدهاء مما عهدناه من قبل . وها نحن نلقاه اليوم في « فيلوكتيت » مسرحية « سوفوكليس » الشاعر العظيم فإذا بنا في القرن الخامس قبل الميلاد وإذا بنا في أثينا حيث ظهر الفلاسفة ، وكثر الخطباء ، وتمدد السوفسطائيون : فأخذت بوادر الانحلال تدب في

ما تدبروا الوجود والنفس الإنسانية ؛ النفاذ إلى جوهر الحياة الإنسانية ، فكشفوا الستار عن أسرار البشر وطبائعهم الأصلية ، وأودعوا أبطال قصصهم هذه الأسرار وحلوم هذه الطبائع فجاءت « نماذج بشرية » بحق كما سماها المؤلف لأنها تمثل آلافاً من البشر الذين يعيشون بيننا ويضطربون في مناكب الحياة ؛ ولأنها تساهم في تجسيم المشاكل الإنسانية ، تلك التي نشترك فيها جميعاً أيما كان زماننا وأيما كان مكاننا ، كمشكلة السعي الأبدى لبلوغ الحق والخير والجمال ، كما تصورهما مأساة « فوست » ، والصراع الدائم بين قوى الفرد وصخرة المجتمع العاتية التي لا ترحم ، كما تبرزها قصة « جوليان سوريل » أو قصة الخلاق الفيلسوف « فيجارو » ، وكالحب ذلك النفس القدسي الذي أودعه الله قلوب البشر والذي لن تخمد جذوته ما بقي قلب ينبض في هذه الحياة ، ذلك الحب الأبدى الذي خلّد حياة « دانتي » الشاعر الإيطالي بقصته مع « بيتريس » في « المهد

الجديد » Vita Nova

فكتاب النماذج إذن وحدة متسقة لأن كل نموذج إنما هو محاولة لبلوغ العناصر الخفية في نفوسنا الإنسانية . ولهذا كانت حياة النماذج حياتنا لأنها تجاوب ما فينا من عنصر إنساني ، وتعتبر عما يكتنف نفوسنا من مشاعر وأهواء

وقد أدرك الدكتور مندور هذه الحقيقة الواضحة التي يرجع إليها الفضل في خلود نماذجنا على صفحات الزمن ، فبعت هذه الشخصيات الروائية خلقاً جديداً مليئاً بالحياة ، زاحراً بمائها . وكان المؤلف إذ يتحدثك عن نماذجه ويورد أخبارها إنما يتحدثك عن شخصيات رآها ، أو حيوات عاشها ؛ وذلك ، بحاله من قدرة على بعث نماذجه من مرقدتها وإكسابها واقعية حية ، وهيئة الأجواء التي عاشت فيها ، واستحضار الملابس التي اكتنفت حياتها

وقد ساعده على هذا دراسة طويلة للأدب الغربية ، دراسة تستطيع أن تقف على مدى عمقها إن أنت قرأت ما كتبه عن

الأخلاق . وتلك ظاهرة لها أشباهها في تاريخ كل الشعوب ،
فالتفكير ملكة خبيثة كثيراً ما تنتهي بالإنسان إلى تبرير كل
الوسائل والتماس كافة السبل لما نسمى إليه من أهداف ، فيسكت
صوت الضمير ، ويخطف من النفس معاني الذبل التي تتوافر عادة
في البداوة »

وهو يأبى أن يدع (أوليس) بعد هذه المسرحيات اليونانية
الثلاث فتلمسه في الآداب الحديثة أيام نهضت أوروبا من رقادها
في عصر النهضة ، تفتش عن تراث اليونان الخالد فتبتمه من
جديد . وكان (أوليس) — وقد اجتمعت فيه عوامل الخلود —
ممن استوقف الناظرين فظهر في كثير من آداب عصر البعث
الملي . ففتبعه مؤلفنا عند (دانتى) الإبطالى وعند الشاعر
الفرنسى (دى بللى ' Du Bellay) وأخيراً ينتهى بنا عند أوليس
الكتاب الإنجليزي المعاصر (جيمس جويس) James Joyce
هذا هو الجيد الذى كان على المؤلف أن يحتمله كي يخرج لنا
أوليس نموذجاً بشرياً في صفحات قلائل ، يقرأها آلاف البشر
في يسر دون أن ينعموا النظر فيما تخفى هذه السطور من دراسة
دقيقة متصلة

(أوليس) إذن عصارة مركزة لتلك الآداب اليونانية التي
تشرّبها المؤلف ، وأحسب أنه لو لم يشرّبها لسا استمتعنا بقراءة
(أوليس) . فنحن إذ نقرأ أوليس نحس لذة لا تزول لأنّ من
صور حياتها عاش أعواماً في ظل (هوميروس) يحسو أعذب
الرحيق من ملحمته ، وماشى تطور اليونان حتى عصر
(سوفوكليس) . ولأنه زار تلك المواطن التي أوردها هوميروس
في ملحمته : شاهد بحار اليونان التي خرج فيها (أوليس) على
رأس جنده ، وتطلع إلى ثمة (الأولب) مقر الآلهة ، وشاهد
تلك المخلفات الرهيبة الساحرة ، التي لا تزال تفوح منها حتى
اليوم رائحة هذه الممارك الدامية بين أثينا واسبرطة ، وتنبعث
منها صور الماضي السحيق وأطيان أبطال اليونان وشعرائهم
وفلاسفهم

وهكذا فاللؤاف إذ يحدثنا عن (جفروم) أو (العيط)
أو (إبراهيم الكاتب) لا يحدثنا عن شخصيات نراها عنها
في بطون الكتب بل جاء حديثه نتاج تمثله لهذه النماذج وتفسيره
روح خالقها . فحديثه إنما هو بعض نفسه ، ومن أجل هذا
استطاع أن ينقل إلى قرانه في يسر ، ما أحس من مشاعر ،
وأن يضمّن في نفوسهم ما أحدثته هذه النماذج في نفسه من أثر
عميق لا يحصى

كل ذلك في أسلوب لا أجد في التعبير عن موسيقاه أحلى من قول السيدة ملاك في مقدمة الكتاب : « إنها ليست موسيقى رقص محدودة متقابلة ، ولكنها فيض نفس ، نفس حارة غنية ، موسيقى سيالة ناعلة وتهبط ، وتتكسر وتراخي وتندافع حسب نبضات الإحساس أو وثبات الفكر . »

وبعد : فهذا أيها القارئ ' كتاب النماذج من حيث هو كتاب أدب . ولكن هل هو كتاب أدب فحسب ؟ أو أراد به مؤلفه أن يكون صياغة جديدة لبعض القصص العالمي ، وعرضاً تحليلياً لأبطال هذا القصص ؟ اللهم إن كان هذا لجاء الكتاب دراسة فحسب ولما كان فيه خلق أو طرافة . ولكن ما بمطى الكتاب قيمته إلى سيخلد بها هو انطواؤه على تيارات خفية ؛ من اليسير على القارئ ' اللبيب أن يدركها ، تيارات نفسية هي مخرج من السخط على ما في المجتمع من شرور ، ونطلع قلق لتحطيم ما فيه من أصنام ، وتدمير ما يحوى من نظم عقيمة بالية . هذه التيارات اهتمت في نفس المؤلف وأقلقت روحه مذ كان شاباً غرض الشباب ، فلم يجد سبيلاً للافصاح عن هذه الثورة الكامنة والتعبير عن أوسكاره ، ومثله السياسية والاجتماعية ، إلا أن تكون هذه النماذج البشرية ، ههنا المخلوقات الإنسانية التي تبناها لتصور بعض جوانب نفسه وتنقل رسالته الاجتماعية إلى الجيل الجديد .

عبد المظفر محمد الفيزي الملبجي

ليأمنه في القلعة